IUGJEPS
Vol 27, No 4, 2019, pp 170 -189

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (27-05-2018)، تاريخ قبول النشر (28-08-2018)

تشقيق المعنى عند تمام حسان في ضوء نظرية السياق

اسم الباحث: د. فتحية محمد الدبابسة 1 *

1 اسم الجامعة والبلد: قسم اللغه العربية - كلية الآداب - الجامعة الأردنية - الأردن

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: dbabseh.fth@yahoo.com

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى انشغال تمام حسان بالمعنى الدلالي الكامل، وبكيفية الوصول إليه عن طريق تشقيقه إلى ثلاثة معانٍ فرعية، إذ يستقل كل فرع من هذه الفروع بجزئية من هذا المعنى يُظهرها ويكشف عنها، وفي المحصلة هي فروع تتشابك معاً وتتداخل فلا يُستغنى عن أي منها للوصول إلى المعنى النهائي المقصود، كما تهدف الدراسة إلى معرفة كنه نظرية فيرث(Firth) السياقية ومقوماتها من جهة، ومدى تأثر تمام حسان بهذه النظرية في جهوده اللغوية ذات الصلة بالدلالة السياقية (الدلالية) من جهة أخرى.

كلمات مفتاحية: فيرث ، الكلام ، السياق ، معنى ، صوت

Split of meaning for Tamam Hassan in light of context theory

Abstract:
The aim of this study is to reveal the extent to which Tammam Hassan is fully aware of the semantic meaning and how to reach it by assigning it to three sub-meanings, Each of these branches is in partial part of this meaning that is revealed and revealed. Of them of reach the intended final meaning. And the study also aims to know the context of Firth's theory and its components on the one hand, and the extent to which Tammam Hassan was influenced by this theory in his linguistic efforts related to the contextual connotation.

Keywords: Firth , Speech , Context , Meaning , Sound

المقدمة

تعدّ النظرية السياقية أحد المحاور الرئيسة في علم الدلالة، لما لها من أهمية كبيرة في الوصول إلى الدلالة الصحيحة في الكلام، لا سيما في تحديد دلالات الألفاظ التي قد تلتبس فيها المعاني، وتتوافر لها الاحتمالات ما لم توضع في سياق معين، مما يعني أن معرفة السياق أمر ضروري للقراءة الصحيحة والتلقي الصحيح، لا سيما أن معنى الكلمة في المعجم عام ومتعدد، ومعناها في السياق محدد أو هكذا يفترض.

وقد عرف علماء العربية القدامى السياق بلفظه أو بمسميات أخرى، نحو: الحال، والمقام، والموقف، والدليل، والقرينة؛ للدلالة على الظروف والملابسات الخارجية التي يُؤتى بها لتوضيح المعنى وتفسيره، إلا أن آراءهم فيه لم تأت على شكل نظرية متكاملة متسقة، بل وردت مبعثرة ومتفرقة في مؤلفاتهم المتعددة.

وحديثاً اكتملت هذه النظرية على أيدي علماء اللغة الغربيين تحديداً العالم اللغوي الإنجليزي فيرث(Firth) وتلاميذه، وتأثر بنظريته عدد من العلماء اللغويين: غربيين وعرب، منهم تمام حسان الذي تأثر بفيرث تأثراً مباشراً نظراً لبعثته الدراسية إلى لندن.

وتمام حسان من علماء العربية الذين اهتموا بالمعنى وبطرق البحث عنه، حتى غدا ذلك الاهتمام يغلب على جهوده اللسانية[1]، وستقف هذه الدراسة عند إحدى جزئيات اهتمامه تتمثل في "تشقيق المعنى عنده في ضوء نظرية فيرث السياقية". ولبيان ذلك جُعلت الدراسة في محورين هما:

أولاً – النظرية السياقية.

ثانياً – السياق عند تمام حسان وتضمن:

- سياق الحال.
- تشقيق المعنى.

النظرية السياقية

اقترنت هذه النظرية بالعالم اللغوي جون فيرث(Firth) الذي أكد على أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، وأن المعنى "لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي: وضعها في سياقات مختلفة"[2]. بمعنى أن الكلمة خارج السياق تحتمل صنوفاً من المعاني، فلا يعرف المراد منها على وجه التحديد إلا من خلال السياق الذي توضع فيه. فإذا تغير سياقها صارت كلمة جديدة.

وفيرث في نظريته تأثر بالعالم الأنثروبولوجي البولندي مالينوفسكي(Malinowski) الذي ارتبطت به فكرة السياق حين أدرك أن وظيفة اللغة لا تقف عند مجرد نقل الأفكار والانفعالات، أو التعبير عنها أو توصيلها، فاللغة عنده ضرب من العمل مع الاحتفاظ بكونها وسيلة اتصال بين الناس، ولهذا وجد مالينوفسكي أنه لا يمكن للنصوص أن تؤدي معنى إلا إذا عُرِفت الحال التي كان عليها المتكلم حين نطق بها[3]، وبهذا يكون أول من استعمل مصطلح(Context of Situation) سياق الحال ليشير

(1) وتجدر الإشارة إلى وجود بعض الدراسات التي تناولت جهود تمام حسان اللغوية، من هذه الدراسات: "جهود الدكتور تمام حسان في الدرس اللغوي والنحوي"، للباحثة فاطمة العليمات، وهي دراسة جامعية لنيل درجة الماجستير، و"الفكر النحوي عند تمام حسان دراسة وصفية تحليلية"، للباحث عبدالله محمد الدبيس، وهي دراسة جامعية لنيل درجة الماجستير، و"الآراء النحوية في كتاب(اللغة العربية معناها ومبناها) –دراسة وصفية تحليلية–" للباحث بلقاسم منصوري، وهي أيضاً دراسة جامعية لنيل درجة الماجستير، وهناك بعض الكتب التي تطرقت هي الأخرى لبعض جهود تمام حسان اللغوية، منها: كتاب "نشأة الدرس اللساني العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي" لفاطمة الهامشي بكوش، وكتاب "المنوال النحوي العربي: قراءة لسانية جديدة" لعز الدين مجدوب، وكتاب "العربية وعلم اللغة البنيوي" لحلمي خليل.

(2) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص68.

(3) ينظر: فرانك بالمر، علم اللغة إطار جديد، ص74.

به إلى الظروف المحيطة بالكلام لتساعد على فهم المعنى المقصود، فقد ذكر فرانك بالمر(Balmer) أن الكلام المنطوق عند مالينوفسكي"يكون له معنى فقط حين يوضع في السياق الذي استخدم فيه،...، وأن اللغات الحية يجب ألا تعامل معاملة اللغات الميتة، تنزع من سياق حالها، بل ينظر إليها كما استخدمها أفراد للصيد أو الحرث أو البحث عن السمك...إلخ"[1]. فاللغة عنده "أسلوب عمل وليست توثيق فكر"[2]. وتجدر الإشارة إلى أن كلمة السياق كانت معروفة ومتداولة عند اللغويين قبل مالينوفسكي، إلا أنه أضاف إليها كلمة الحال فأصبح المصطلح مركباً تركيباً إضافياً فــ(سياق) مضاف، و(حال) مضاف إليه.

تبنى فيرث آراء مالينوفسكي اللغوية وطورها وجعل منها نظرية أكثر دقة وإحكاماً معطياً سياق الحال المتمثل في الظروف والملابسات الاجتماعية المصاحبة للنص اللغوي الأهمية القصوى في فهم النصوص، فهو يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية لذلك يجب أن تدرس بوصفها جزءاً من المسار الاجتماعي، أي: كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كمجموعة من العلامات الاعتباطية أو الإشارات[3]. فما دامت اللغة "والكلام" ظاهرة اجتماعية والسلوك اللغوي يعدّ من العملية الاجتماعية، فالمعنى عنده كل مركب من مجموعة الوظائف الصوتية والنحوية والمعجمية، ومن سياق الحال الذي يشمل عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمستمع والظروف المحيطة والبيئة[4]، مما يعني أن الوصول للمعني الدلالي الكامل يتطلب من الدارس تحليل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة من جهة، والوقوف على سياق الحال وإبانته من جهة أخرى.
وهنا يرى كمال بشر أن دراسة المعنى عند فيرث تقوم على أسس ثلاثة:

1. وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على المقام، مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف وملابسات وقت الكلام الفعلي وتحيط بالحدث الكلامي، فالكلمات لا تقل في أهميتها عمّا يصدر عن المتكلم، من إشارات وحركات جسمية أو ضحك أو غير ذلك مما يصحب الكلام الإنساني، فالاهتمام بالمقام وسياق الكلام ضروري لأن الكلمة لا معنى لها ولا قيمة إذا أخذت منعزلة عن سياقها ومقامها.
2. وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته، فتحديد البيئة يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى، لأن الخلط يؤدي إلى نتائج غير دقيقة نظراً لاختلاف المادة التي أخذت منها هذه النتائج؛ لذا يجب تحديد البيئة الاجتماعية أو الثقافية التي تحتضن اللغة المراد دراستها، فعلى الباحث أن يحدد دراسته على مستوى لغوي واحد، نحو لغة المثقفين أو العوام أو لغة الشعر أو لغة النثر.
3. الكلام اللغوي عند فيرث مكون من أحداث، وهذه الأحداث معقدة مركبة، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة، بل يجب تشقيقها والنظر إليها على مراحل، بحيث تقود كل مرحلة إلى أخرى، إلى أن يصل الباحث بنتائجه النهائية بصورة صحيحة دقيقة، وهذه المراحل هي فروع علم اللغة بأنواعها: الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية ثم سياق الحال، وهذه الفروع مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً، والفصل بينها لا يجوز إلا بقدر ما تسمح به ظروف خاصة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع هي خواص الكلام المدروس[5].

فكلمة (رجل) مثلاً تحتاج دراستها إلى دراسة صوتية، لأن جزءاً من معناها نابع من كونها مركبة ومرتبة من هذه الأصوات تحديداً، فإذا ما حل حرف مكان حرف آخر فسيتغير المعنى، أما معناها الصرفي فهو كونها اسماً وليس فعلاً أو حرفاً، وفي صيغة صرفية محددة، أما وظيفة علم النحو فتتمثل في بيان خصائصها النحوية، فقد يلحقها أو يسبقها كلمات تحدد معناها ووظيفتها النحوية، ويقوم المعجم ببيان الجزء الرابع من المعنى وهو دلالتها على إنسان معين ذي سن معينة، وهذا كله يشمل

1() ينظر: نفسه والصفحة نفسها، ومدخل إلى علم الدلالة، ص96.
(2) بالمر، علم اللغة إطار جديد، 74.
(3) ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص174.
(4) ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص340.
(5) ينظر: كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ق174/2.

الجانب اللغوي، ثم يأتي دور سياق الحال وما يتصل به من عناصر وملابسات وقت وقوع الحدث الكلامي الفعلي، فقولنا: جهاد رجل لا امرأة قول يضفي على الكلمة معنى غير ذلك الذي يقال فيه اختبرت علياً فوجدته رجلاً لا كالرجال. ولذا يشمل السياق:

- شخصية المتكلم والمخاطب وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من شهد الكلام إن وجدوا ودورهم. وجميع الظروف المحيطة بالكلام إن كان لها أثر فيه، نحو الحالة الجوية والوضع السياسي، ومكان الكلام وزمانه.
- نوع الوظيفة الكلامية؛ من تعجب، أو إغراء، أو استفهام، أو تمنٍ، أو غير ذلك.
- الأثر الذي يتركه الكلام في المشتركين، من ضحك، أو تألم، أو تصديق، أو تكذيب، أو سخرية، أو غير ذلك[1]. فاللغة عنده ظاهرة اجتماعية، ولا يمكن فهمها أو تحليلها إلا على هذا الأساس، والكلام ليس ضرباً من الفوضى، أو شيئاً كامناً في الذهن أو العقل، وهو كذلك ليس العلاقة المتبادلة بين اللفظ وصورته الذهنية، إنما هو من خلال تحليل الحدث اللغوي على مستوياته كافة في ظل سياق الحال. وهكذا يتعامل فيرث مع سياق الحال تعامله مع أي مستوى آخر، وهو في نظره أداة من أدوات اللغوي بالطريقة نفسها التي يستخدم بها النظام النحوي مثلاً، وهو لا يتصور علماً للدلالة دون الإحاطة بالسياق، فالسياق عنده "هو المركز الذي يدور حوله علم الدلالة"[2]. ولعل أبرز ما تنماز به آراء فيرث أنها تقوم على التحرر من فكرة الثنائيات في دراسته للمعنى، يقول خليل عبد النعيم على لسان فيرث: إن منهجي في دراسة المعنى اللغوي تحررت من فكرة الازدواجية في اللغة: العقل والجسم، اللغة والفكر، الكلمة والفكرة، المعبر والمعبر عنه، العبارة والمضمون، فهذه تعريفات من وجهة نظره لا ضرورة لها، ويجب إهمالها[3]. ففيرث يؤمن بوحدة الإنسان بشقيه المادي والمعنوي، وبالتالي وحدة اللغة وتكاملها، وهي في رأيه نتاج إنساني، فهو يرفض فكرة الفصل بين اللغة والكلام، كما أنه أعاد دراسة المعنى إلى فروع علم اللغة الخالصة بعد أن كانت تتصل بغيرها من العلوم نحو: الفلسفة، والاجتماع، والمنطق، وعلم النفس[4]. فاللغة بفروعها كافة في خدمة المعنى.

إذاً يمكن القول إن نظرية فيرث السياقية بُنيت على ركنين أساسيين: الأول داخلي، والآخر خارجي، ويسمى الأول بسياق النص أو السياق اللغوي(Verbal Context)، وهذا السياق لا يتجاوز حدود النص، فهو يتأتى من علاقة الحروف في الكلمة، ومن علاقة الكلمة بالأخرى، وعلاقة الكلمة بالجملة، أما الركن الخارجي المسمى بالسياق غير اللغوي أو سياق الحال أو سياق الموقف(Context of Situation)، فهو السياق الذي تربطه علاقة ما بالظروف والملابسات المحيطة بالكلام. أو العناصر الخارجية غير اللغوية. فالوصول إلى المعنى الدلالي لنص لغوي ما لا يتوقف على الإلمام بعناصر السياق الداخلي بمعزل عن العناصر الخارجية، أي أن للنوع الثاني عند فيرث دوراً مهماً كدور النوع الأول إن لم يكن أكبر في الوصول إلى المعنى الدلالي الكامل.

إلا أن هناك من يرى أن نظرية السياق التي اعتنى فيرث بوضعها كانت لها بذور سابقة قبل مالينوفسكي عند عالم النفس النمساوي كارل بيلر(Karl Buhler) من مدرسة براغ، الذي رأى أن اللغة نظام من العلامات تعمل مثل الآلة، التي بواسطتها يتناقل الناس الخبر عن الأشياء، وهذا المفهوم لدى بيلر يُنبئ عن أهمية السياق، أو المقام، عند النظر إلى موضوع الدراسة، ويصبح من المطالب المهمة لفهم وظيفة اللغة، من حيث هي آلة، أن ينظر إليها في إطار عوامل رئيسية تنظم الموقف الكلامي هي: المتكلم، والمستمع، والأشياء(أي عناصر الموقف الملموسة وأوضاعها) التي هي موضع الكلام[5]. أما عبده الراجحي فيرى أن فكرة سياق الحال ليست من ابتكار فيرث، وإنما ترجع بعض ملامحها إلى لغويي القرن التاسع عشر، وقد عرض

(1) ينظر: عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص282.

(2) جون ليونز، ما معنى"نظرية المعنى"عند فيرث؟ ص60.

(3) ينظر: عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص281.

(4) ينظر: جفري سامسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ص238.

(5) ينظر: نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء علم اللغة الحديث، ص93.

فيجنر(Vegner 1885)، لما أسماه نظرية الموقف(1). وقد تكون جذورها ممتدة إلى فندريس الذي يرى أن يُعيّن مدلول القيمة في كل حال من حالات السياق؛ فالكلمة تكتسب معنى مؤقتاً بتأثير السياق، وهو الذي يفرض قيمة بعينها على الكلمة(2). بينما يذكر إبراهيم خليل أن هذه النظرية تعود في جذورها لمن هو أقدم من هؤلاء: هامبولدت (Hamboldt) وهو عالم ألماني، يرى أن اللغة لا تعدو أن تكون انعكاساً للعامل الاجتماعي والثقافي والنفسي، وهي في الوقت نفسه تمثيل لهذه العناصر مجتمعة، وبريل (Breal) وهو عالم لغوي فرنسي، صاحب كتاب (Semantics) "علم الدلالة"، والباحث اللغوي الألماني دارْمِستَتْر (Darmesteter) صاحب كتاب "حياة الألفاظ"، وفيه يذكر أن حياة الألفاظ تتأثر بعوامل ثلاثة هي: العامل المنطقي، والعامل النفسي، والعامل الاجتماعي، ومن هؤلاء العلماء أيضاً العالم الفرنسي أنطوان مييه (Antoine Meillet)، الذي ذهب إلى أن كل تغيير دلالي يطرأ على اللفظ مردّه إلى السياق، أو إلى الارتباط باستعمال سياقي معين يتبعه اطراد بين اللفظ ومعناه الجديد، والعالم هانز سبربر(Saprper)، وعنده أن كل لفظة تكتسب معنى جديداً إنما تكتسبه نظراً للوظيفة التي يمنحها لها السياق(3)، وأياً كان منبع هذه النظرية، فإنها قد نضجت وأصبحت نظرية متكاملة على يدي فيرث، حتى غدت من أهم النظريات الحديثة في البحث عن الدلالة الكاملة لنص ما، وإلا لما اقترنت باسمه.

وقد اتبع فيرث في نظريته عدد من العلماء الغربيين من أمثال: هاليدي(Halliday)، وسان كلير (Sinclair)، وميتشل(Mitchell)، وجون لاينز(John Lyons)، وغيرهم ممن أطلق عليهم بالفيرثيين الجدد، مما يعني أن النظرية السياقية لم تتوقف بعده، بل قام تلاميذه بتطوير آرائه، فذهبوا إلى أنه ليس للألفاظ قيمة ولا دلالة خارج السياق، فرأوا أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها، لذلك نفوا عن الصيغة اللغوية دلالتها المعجمية، يقول سالم شاكر على لسان مارتيني: "خارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى"(4). ويقول جون لاينز: "أعطني النص الذي وجدت فيه الكلمة وأعطيك معناها"(5). ففيرث وأتباعه يذهبون إلى أنه ليس للألفاظ دلالة ولا قيمة خارج السياق. وهذا القول مبالغ فيه، فكون الكلمة يتحدد معناها الدقيق في السياق لا يلغي معناها المعجمي، فكثير من الكلمات ذات معانٍ متعددة، والسياق هو الذي يحدد المعنى المطلوب.

فما جاء به فيرث من سياق الحال أو الإطار الاجتماعي لنص ما، يشبه المقام الذي نص علماء العربية القدامى على وجوب مراعاته لتتم بلاغة الكلام، والفرق أن فيرث جعل السياق أساساً لفهم المعنى وصحة الكلام، في حين عدّ علماء العربية مراعاة المقام أساس البلاغة، لا مجرد الصحة اللغوية، فالكلام البليغ عندهم هو الذي يتلاءم مع الموقف وحال السامع، وإلا فلا، فالمقام عندهم يفرض على المتكلم نمطاً معيناً من الكلام، فمقام المدح غير مقام الهجاء، ومقام التعريف غير مقام التنكير. وكأن المقام عندهم هو المعيار الذي يوجه الكلام فيجيزه أو لا يجيزه. وهذه النظرة للمقام تباين نظرة اللغويين المحدثين الذين يلجأون إليه في تحليلهم للنصوص اللغوية للوقوف على دلالة تلك النصوص، لا للحكم على صحتها.

ومن اللغويين المحدثين من أدرك أهمية السياق في فهم معاني النصوص، إلا أنه حذر من مبالغة الذين يدعون أن الكلمة ليس لها معنى بمعزل عن السياق على الإطلاق، من أمثال ستيفن أولمان الذي انتقد ما ذهب إليه أنصار النظرية الفيرثية بقوله: كثيراً ما يرددون القول بأن الكلمات لا معنى لها على الإطلاق خارج مكانها في النظم، يقول القائل عندما أستعمل كلمة يكون معناها هو الذي أختاره لها فقط لا أكثر ولا أقل"(6).

---

(1) ينظر: عبده الراجحي، فصول في علم اللغة، ص73.

(2) ينظر: جوزيف فندريس، اللغة، ص231.

(3) ينظر: إبراهيم خليل، السياق وأثره في الدرس اللغوي دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، ص27 – 28.

(4) سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص31.

(5) جون لاينز، علم الدلالة الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري، ص23.

(6) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص68.

وعلى الرغم من إدراك أولمان أهمية السياق في فهم النصوص اللغوية إلا أنه لم ينكر وجود معنى للكلمة في المعجم، فهو يرى أن الكلمات المخزونة في الأذهان لا تحظى بالدقة والتحديد إلا بوضعها في التراكيب الحقيقية المنطوقة، وإلا كيف تصنف المعاجم إذا لم يكن لهذه الكلمات معانٍ؟ وهو في الوقت نفسه لا ينكر أن كثيراً من الكلمات يعتريها الغموض، ومعانيها غالباً ما تكون غير محددة تحديداً دقيقاً، "ولكن هذه الكلمات لا بدّ أن يكون لها معنى أو عدة معانٍ مركزية ثابتة"[1]. فأولمان يرى أن الكلمة خارج السياق لها معنى، وعند وضعها في سياق ما تتشارك مع المعنى الذي يفرضه السياق عليها.

والسياق عنده لا يقتصر على الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة، بل يشمل القطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل – بوجه من الوجوه – كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام أي السياق الاجتماعي الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن[2].

من هنا يمكن تحديد المعنى على أنه العلاقة بين العناصر اللغوية والسياق الخارجي أو السياق الاجتماعي، إذ تتحدد معاني تلك العناصر وفق استعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة. وبناءً على هذا الفهم قسّم بعض اللغويين المحدثين السياق إلى أربعة أنواع، هي: 1- السياق اللغوي، وهو باختصار يتمثل في النظم اللفظي للكَلم وموقعه من ذلك النظم، الذي يشمل الكلمات والجمل السابقة واللاحقة للكلمات، والنص الذي ترد فيه[3]. وما لذلك من أثر في توجيه دلالتها. 2- سياق الموقف، ويقصد به السياق الخارجي، ويشمل كل ما يحيط بالحدث الكلامي من عناصر غير لغوية، تتصل بالمكان والزمان، أو شخصية المتكلم أو المخاطب، أو الحركات والإشارات التي تسهم في تحديد دلالة الكلمة[4]، 3- السياق العاطفي، وهو السياق الذي يحدد يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، فكلمة يكره غير كلمة يبغض رغم اشتراكهما في أصل المعنى، 4- السياق الثقافي، وهو السياق الذي يقتضي تحديد المحيط الثقافي، أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلمة (جذر) لها معنى عند المزارع يختلف عمّا هو عليه عند اللغوي، وعند عالم الرياضيات[5]. ويمكنني القول إن هذا التقسيم لا حاجة له، فهو يعمل على على تفتيت السياق ليس غير، فالسياقان العاطفي والثقافي يدخلان ضمن سياق الموقف، مما يعني أن السياق سياقان، هما: السياق اللغوي، وسياق الموقف.

تأثر اللغويون العرب المحدثون بهذه النظرية فمنهم من تلقى هذا العلم على يدي فيرث بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن هؤلاء: كمال بشر، ومحمود السعران، وتمام حسان الذي ستوضح الصفحات القادمة مدى تأثره بهذه النظرية.

ثانيا: السياق عند تمام حسان

قبل الحديث عن الدلالة السياقية عند تمام حسان، أود الإشارة إلى أن جلّ كتابات تمام حسان تدور حول المعنى وطرق البحث عنه، فالمعنى هو النواة التي أقام عليها كتابه اللغة العربية معناها ومبناها، فهو ومن خلال عنوان الكتاب، يقدّم المعنى على المبنى، ولبيان أهمية المعني عنده يرى أن كل دراسة لغوية يجب أن تتجه إلى المعنى، "لأن المعنى هو الهدف المركزي الذي تصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب"[6]. ويؤكد على المعنى مرة أخرى في كتاب آخر قائلاً: إن كل دراسة لغوية لا في الفصحى فقط، بل في كل لغات العالم يجب أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى، وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى، وهذا النوع من النظر إلى المشكلة يمتد من الأصوات إلى الصرف إلى النحو إلى المعجم إلى الدلالة. وموقف الباحث اللغوي هنا كموقف الباحث في تشريح الجسم

(1) أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص69.

(2) ينظر: نفسه، ص68.

(3) ينظر: نفسه، ص68.

(4) ينظر: السعران، علم اللغة، ص310 – 411.

(5) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص70 – 71.

(6) تمام حسان، اللغة العربية بين الوصفية والمعيارية، ص118.

الإنساني، الذي يلاحظ أجزاء الجسم وطرق تركيبها وعلاقة كل جزء منها بالآخر[1]. وهذا التشبيه للباحث اللغوي هو التشبيه نفسه الذي يقول به فيرث، كما يشير النص إلى أن المعنى يأتي من تعاون فروع اللغة كافة، ومن ارتباط الشكل بالوظيفة مما يعني أن المعنى المقصود هو المعنى الوظيفي، وهو حصيلة فروع اللغة كافة: صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية ودلالية. وهذه الفروع كأعضاء جسم الإنسان، والباحث عن المعنى كالباحث في قسم التشريح، مع اختلاف المادة والأدوات، كما يمكن القول إن المعنى وكيفية البحث عنه هو الموجه لدراسات تمام حسان اللغوية، إذ لا يمكن أن يطلب من غيره من الباحثين عمله في حين لا يلزم نفسه بما يطلبه من غيره.

والمتتبع لجهود تمام حسان السياقية يجدها توزعت على ما يأتي:

- **سياق الحال**

ففي بحث تمام حسان عن المعنى وجد في نظرية أستاذه فيرث السياقية مبتغاه، فتأثر بها تأثراً كبيراً، فشرحها وطبقها على اللغة العربية، حتى عدّ حديثه عن سياق الحال أول حديث عن هذا المفهوم في العربية. إلا أن تمام حسان أطلق على مصطلح سياق الحال عند فيرث المقام، آخذاً ذلك عن اللغويين العرب الأقدمين، إذ هو يرى أن هذا المصطلح أعم وأشمل من سياق الحال. وسياق المقام عنده كما سياق الحال عند فيرث مبني على ركنين هما: سياق النص وسياق الموقف. والمقصود بسياق النص الجانب القولي بما فيه من عناصر التركيب، وما تنتظم به من تصنيف وتأليف وعلاقات وقرائن، وأما سياق الموقف فهو ما يصاحب المنطوق من أوضاع تداولية توصف أحياناً بأنها عناصر الموقف، وهي عظيمة الأهمية لفهم ما يقال، ويسميها المفسرون أسباب النزول، ويسميها شراح النصوص (المناسبة) أو المقام[2]. وقد أطلق تمام حسان على المقام مصطلح الماجريات، وهو مصطلح أخذه عن فيرث، وهذا المصطلح استعمله تمام حسان مقابلاً عربياً للمصطلح الإنجليزي Context of Situation)، والمقصود به مجموع العناصر المحيطة بموضوع التحليل، تشمل حتى التكوين الشخصي، والتاريخ الثقافي له، ويدخل في حسابها الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا الاصطلاح في علم اللغة قصد به دائماً سياق النص، أما في السلوك الكلامي العادي فكل وضع مهما كان يعدّ عنصراً من عناصر الماجريات[3].

وعناصر المقام عند تمام متعددة، فهي تشمل المتكلم، والسامع، والظروف المحيطة، والأحداث الواردة في الماضي، والحاضر، كما تشمل التراث، والفلكلور، والعادات، والتقاليد، والمعتقدات، ومن عناصره أيضاً موضوع الكلام ودواعيه، ومكانه وزمانه، والجو الذي قيل فيه، وما يرتبط به من قرائن حالية أو مقالية، كإشارة اليدين، وتعبيرات الملامح، وغمزات العينين، ورفع الحاجب، وهز الرأس، وجميع الحركات العضوية، مما يعد قرائن حالية في أثناء الكلام، ثم التعبيرية بخوالف الأصوات، وبالتأفف، والتأوه، وأصوات الشفتين المختلفة، مما يعدّ من القرائن المقالية أثناء الكلام[4]. ويلاحظ أن تمام حسان قد فصّل عناصر سياق الموقف فذكر كل ما يمكن أن يكون له دور في إظهار المعنى وإبرازه، كما أنه وسّع دائرة هذه العناصر لتشمل العناصر الجسدية المصاحبة للكلام المنطوق، والمعروف أن الحركة تجسد الأفكار، وتصور العواطف، فهي تعد من وسائل الكشف عن المعنى، أي أن المعاني تدرك من خلال الحركات والإيماءات، وهذه الأمور لا تراها العين في الكلام المكتوب، وإنما تراها مصاحبة للكلام المنطوق، لذا فمعرفة هذه القرائن أمر ضروري، بل هي جزء لا يتجزأ من أجزاء السياق المساعدة في الوصول إلى الدلالة الكاملة.

---

(1) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص9.

(2) ينظر: تمام حسان، حصاد السنين من حقول العربية، ص166.

(3) ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص286. وما يسميه تمام حسان المقام، أو الماجريات يسميه اللغويون الظروف الكلامية، أو الحال، أو سياق الحال، أو المسرح اللغوي...إلخ.

(4) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص352.

فالعلاقة بين النص اللغوي والسياق علاقة مؤكدة، ويتفق تمام حسان مع جون لاينز الذي يرى أن كلاً منهما متمم للآخر، فالنصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها، وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكُتاب في مواقف معينة[1].

ويرى تمام حسان أيضاً أن المعنى الدلالي الكامل قد يقف على دلالة حرف بعينه، باعتباره مقابلاً استبدالياً يؤثر عدم وضوحه على المعنى، ويضرب مثلاً بالشخص المزكوم الذي يتفوه بكلمة (بأبون) بدلاً من (مأمون) لكون الميم متفقة مع الباء في المخرج ولكنها تختلف عنها من حيث توجد الغنة في الميم ولا توجد في الباء، وغنة الميم يمكن نطقها في الأنف الصحيح ويتعذر نطقها في الأنف المزكوم، وحين تتعذر الغنة تصير الميم إلى الباء ومن ثم يصير النداء (يا بأبون)، ولما كانت الباء الأولى واقعة في مقطع غير منبور، وكانت الثانية بداية مقطع وقع عليه النبر حينها أصبحت الباء الأولى غير واضحة في السمع كوضوح الباء الثانية، وهذا عند تمام حسان مناط اعتماد المعنى الوظيفي، لأن الميم الأولى لم تتضح في السمع فبقيت وظائف موقعها كما هي، وتفترض الأذن خطأً في هذه الحالة وهو وجود الميم الأولى على حالها، بينما الميم الثانية اتضحت على صورة الباء، وكأن المنادي نادى (يا مأبون)، فذلك دليل اعتماد المعنى الدلالي على الوظيفة التي تناط بالحرف بعدّه مقابلاً استبدالياً[2].

من هنا يظهر أن فهم النصوص وتفسيرها لا يتأتى إلا بالرجوع إلى السياق؛ إلا أنه قد يلتبس مصطلح السياق بمصطلح المقام، وهذا الالتباس ممتد بين زمنين وثقافتين، فقد شاع المقام عند العرب قديماً في الدراسات البلاغية، واستعمل كثير من اللغويين المحدثين الغربيين منهم خاصة مصطلح السياق، إلا أن هناك فرقاً بينهما. والفيصل بين المصطلحين عند تمام حسان يتمثل في معرفة ما تنطوي عليه الثقافة، ففيها ترتبط كثير من المواقف بالاستعمال اللغوي، مما يحد من إخضاع المقام للمعيارية التي تلتصق بتعريفات البلاغيين العرب، وذلك في قوله: "فهم البلاغيون (المقام) أو (مقتضى الحال) فهماً سكونياً نمطياً مجرداً... ثم قالوا لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام،... فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة...، وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكوني (static)، فالذي أقصده بالمقام ليس إطاراً ولا قالباً، وإنما هو جملة الموقف الاجتماعي المتحرك الذي يعدّ المتكلم جزءاً منه تماماً، كما يعدّ السامع والكلام جزءاً منه، وغير ذلك مما له اتصال بالحدث الكلامي (speech) events، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عمليات الاتصال، وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عمّا أفهمه من المصطلح الحديث (Context of situation) الذي يستعمله اللسانيون المحدثون[3]. وهذا يعني أن تمام حسان تراجع عن مصطلح الماجريات الذي أخذه عن فيرث إلى مصطلح المقام، مع وجود بعض النقاط الخلافية بين مصطلح المقام عنده ومصطلح المقام عند البلاغيين القدامى من العرب، فالمصطلح عنده يُحدد في كثير من المواقف بالاستعمال اللغوي، أما عند القدامى فهو خاضع في تحديده للمعيارية. فالمقام عندهم إطار عام وما على المقال إلا أن يتناسب معه ليصبح لكل مقام مقال.

ومراعاة المقام أو الموقف الخارجي عند الأداء الكلامي وعند تلقيه، وذلك ما عُبّر عنه بعبارة لكل مقام مقال، وهو تعبير عربي أصيل، سبق إليه البلاغيون العرب، وآثره تمام حسان بقوله: وحين قال البلاغيون لكل مقام مقال، أي عندما راعوا ما يُسمى عند المحدثين بسياق الموقف، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وهذا ما يعرف بعلم اللغة الحديث بسياق النص، فهم قد وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى حسب، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء، ولم يكن مالينوفسكي وهو يصوغ مصطلحه الشهير (Context of Situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو فوقها، إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت

(1) ينظر: جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص215.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص353.

(3) تمام حسان، الأصول دراسة إيبستمولوجية لأصول الفكر العربي، ص333.

اصطلاح المقام، إلا أن كتبهم لم تجد الدعاية على المستوى العالمي ما وجده مصطلح مالينوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات[1]. ولو عدنا هنا مثلاً إلى ابن جني لوجدناه قد تنبه إلى دور السياق في إظهار المعنى المطلوب من خلال حديثه عن المشترك اللفظي، حيث تتفق الألفاظ رسماً وتختلف دلالة، فلا تظهر دلالتها إلا من خلال السياق، كما أظهر أهمية السياق في تحديد المعنى النحوي، وأوضح دور النبر والتنغيم في الكشف عن الدلالة المقصودة، وبيّن أهمية دلالة المعنى من خلال التركيب، كدلالة السياق في تقدير المحذوف، ويعطي السياق أهمية في التعبير عن معاني الصيغ الصرفية التي تحتمل أكثر من معنى، كدلالة اسم الفاعل واسم المفعول[2]. إذا كانت الكلمة تحتمل أحد المعنيين كقول الحطيئة[3]:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فمقام الهجاء هو الذي جعل من الطاعم هنا إرادة المفعول وكذلك الكاسي.

ويرى عبد الكريم مجاهد أن إدراك ابن جني لمفهوم السياق الاجتماعي "سياق الحال" أي معرفة ظروف الكلام في الكشف عن الدلالة لهو الأساس في نظرية فيرث فيما يسمى بسياق الحال[4].

إذاً فالبلاغيون العرب أدركوا أن مضمون المقال يختلف باختلاف المقام، عندما قالوا لكل مقام مقال، وعليه فما جاء به مالينوفسكي يعود إلى أحقاب طويلة مضت، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينصف علماءنا القدامى على الرغم من تشبعه بالفكر الغربي، فهو لم يأخذ الأمور على ما هي عليه، ولم يتنصل من تراثه مثبتاً أن ما جاء به مالينوفسكي له جذور في تراثنا اللغوي.

وقد أولى تمام حسان المقام عناية خاصة، إذ يراه المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في العصر الحديث، بل هو الأساس الذي يُقام عليه الوجه الاجتماعي من الوجوه الثلاثة للمعنى، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية، التي تسود ساعة أداء المقال، فإجلاء المعنى عند تمام يعتمد على المستوى الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي)، وعلى المستوى المعجمي فوق ذلك، لا يُعطي إلا معنى المقال، وهو معنى فارغ تماماً من محتواه الاجتماعي، ومن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحالية ذات الفائدة في تحديد المعنى، ولذلك كان من الضروري العناية به، ومن ثم فإن المعنى الدلالي يشمل جانبين الأول يتمثل في المقال، والثاني في المقام[5].

وكلما كان النص اللغوي وافياً في بيان الموقف الذي جرى فيه الحديث ازداد السياق غير اللغوي وضوحاً، وهذا ما يؤكده تمام حسان حين يرى أن المقال المكتوب إذا لم يقع في مقامه الاجتماعي الذي كان له في الأصل، فإن هذا المقام الأصيل من الممكن بل من الضروري أن يعاد بناؤه في صورة وصف مكتوب، حتى يمكن للنص أن يفهم على وجهه الصحيح، وفي بناء هذا المقام الأصيل بناءً جديداً بواسطة وصفه كما كان لا بد من الرجوع إلى الثقافة والتاريخ بصفة خاصة، وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً، كان المعنى الدلالي الذي نود الوصول إليه أكثر وضوحاً في النهاية[6]. فقد يكون النص مثلاً واضح الصياغة غير أنه لا يمكن فهمه إلا بعد التقديم له بذكر الظروف التي دعت إليه. حتى لا يفسر المعنى بظاهر النص. وهذا ما يؤكد العلاقة المتينة بين السياقين من جهة، وضرورة إلمام المتلقي بالمعلومات اللازمة التي تعينه على فهم المقام الذي قيل فيه النص.

(1) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص372.

(2) ينظر: عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، ص159.

(3) جرول بن أوس بن مالك الحطيئة، الديوان، 23.

(4) ينظر: عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، ص159.

(5) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص337.

(6) ينظر: نفسه، ص346.

فالذين يقرءون قوله تعالى: ﭐ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﮊ [1]. فمن لا يعرف المقام الذي نزلت فيه هذه الآية، واكتفى بظاهر نصها كان فهمه لرأي الإسلام في الخمر فهماً خاطئاً، ولبدا له الأمر وكأن الإسلام لم يحرم الخمر، بل هو يفاضل بين المنافع والإثم في تناولها واجتنابها، ولكن المقام اللازم للفهم الصحيح لهذه الآية الكريمة يتطلب معرفة أن العرب الجاهليين كانوا يحبونها، لدرجة أنها اقترنت في أذهانهم بالمروءة والعز[2]، وقد علم الله تعالى أنهم كانوا يألفونها وينتفعون بها، فجاء التحريم متدرجاً في أربع آيات رفقاً بالعباد.

ويبين تمام حسان أننا لو حاولنا فهم المقال منفصلاً عن المقام لجاء الفهم قاصراً ومبتوراً وخاطئاً، فقد يرد تعبير جيد في سياق يدل على عكس ظاهره، فيكون المقام هو الفيصل في تحديد معناه وكشف دلالته، ويمثل تمام على ذلك بحادثة علي بن أبي طالب مع الخوارج حين قالوا: "لا حكم إلا لله" فرد علي بي أبي طالب عليهم: "رب كلمة حق أريد بها باطل"، فيقول معلقاً وكان يعني أن الناس ربما قَنِعوا بالمعنى الحرفي لهذا الهتاف، أي بمعنى ظاهر النص، فصدقوا أن الخوارج أصحاب قضية تستحق أن يدافع الناس عنها، وربما غفل الناس عن المقام الحقيقي الذي ينبغي لهذه الجملة أن تفهم في ضوئه، وهو محاولة إلزام الحجة سياسياً بهتاف ديني، فالمقام في هذا الهتاف مقام سياسي، والمقال من الدين، وكان ينبغي للناس أن يفهموا المقال في ضوء المقام[3]. فسياق الحال أدى دوراً واضحاً في إظهار المعنى، فكلام الحق أصبح باطلاً، لأن ظروف الموقف وملابساته استدعت ذلك. ففهم المعنى لا يقف على معنى المقال وحده، بل يضاف إليه معنى المقام. وعلى الباحث أيضاً أن يكون صاحب ثقافة تمكنه من فهم المقام، لأن المقال وحده لا يكفي في تحديد الدلالة إلا بمعونة مقامه.

ويقدم تمام حسان رسماً توضيحياً يبين فيه اعتماد المعنى الدلالي على المعنيين: المعنى المقالي، والمعنى المقامي:

المعنى الدلالي

المعنى المقالي	المعنى المقامي
وهو مكون من المعنى	وهو مكون من ظروف
الوظيفي+ المعنى المعجمي	أداء المقال وهي التي تشمل
وهو يشمل القرائن المقالية	على القرائن الحالية (وكل
كلما وجدت	ذلك يسمى المقام)[4].

والقرائن عنده على ضربين: معنوية، ولفظية، أما القرينة المعنوية فهي العلاقة التي تربط بين عنصر من عناصر الجملة وبين بقية العناصر[5]، وهي خمسة أنواع: 1- قرينة الإسناد، وهي العلاقة الرابطة بين المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل. 2- قرينة التخصيص، وتتفرع إلى: التعددية: المفعول به. الغائية: المفعول لأجله والمضارع بعد اللام وكي. المعية: المفعول معه والمضارع بعد الواو. الظرفية: المفعول فيه. التحديد والتوكيد: المفعول المطلق. الملابسة: الحال. التفسير: التمييز. الإخراج: الاستثناء. المخالفة: الاختصاص.3- قرينة النسبة: معاني حروف الجر التي بها تنتسب معاني الأفعال إلى الأسماء. 4- قرينة المخالفة: المنصوبات التي يتغير المعنى بتغيرها إلى المرفوعات. 5- القرينة التبعية: وتشمل أربعة قرائن، الصفة والتوكيد والبدل والعطف[6]. أما القرائن اللفظية، فهي عنصر من عناصر الكلام يستدل به على الوظائف النحوية، فعن طريقها يمكن

(1) سورة البقرة، 219.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص349.

(3) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص338.

(4) نفسه، ص339.

(5) ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، 11/1.

(6) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص191 - 204.

القول هذا اللفظ فاعل، وذلك مفعول به أو غير ذلك[1]. وهي على النحو الآتي: العلامة الإعرابية، الرتبة، الصيغة، المطابقة، الربط، التضام، الأداة، النغمة[2]. وأضاف إلى المعنى المقالي المعنى الاجتماعي الذي يعده شرطاً لاستيفاء المعنى الدلالي.

إذاً يُظهر الشكل أن المعنى الدلالي يتأتى من المعنيين: المقالي والمقامي، وأن تمام حسان ضمّن كلاً من المعنيين عناصره وقرائنه المكونة له. وبعزل السياق عند تحليل المعنى، لا يكون للمعنى الوظيفي قيمة في ذاته، ولا للكلمات المختارة قيمة في ذاتها، ولا لوضع تلك الكلمات في موضعها الصحيح أهمية في ذاتها، ما لم يكن كله في سياق ملائم. فالمعنى المعجمي والمعنى الوظيفي غير كافيين لإدراك المعنى، أي أن المعنى يظل ناقصاً ما لم ينظر فيه إلى المعنى المقامي.

فالمعنى الدلالي عند تمام حسان كما هو عند فيرث كل مركب، وهذا الكل يبدو في صورة مزيج من المستويات الدلالية، بعضها صوتي، وبعضها صرفي، وبعضها نحوي، وبعضها معجمي، فلكل مستوى من هذه المستويات نصيب من الدلالة. إضافة إلى العنصر الاجتماعي أو المقام الذي قيل فيه النص، حتى لا يكون الفهم مقصوراً على الظاهر من معنى النص. ويأتي تمام حسان بأمثلة عدة يبين من خلالها دور المقام في إيضاح المعنى الدلالي، من ذلك عبارة من يقول لفرسه عندما يراها (أهلاً بالجميلة)، يختلف المقام معه عن الذي يقول هذه العبارة لزوجته، فمقام قول هذه العبارة للفرس هو مقام الترويض، وربما صحب ذلك مسح على عنقها أو تربيت على كتفها، أما بالنسبة للزوجة فالمعنى يختلف باختلاف المقام الاجتماعي للعبارة، فهي قد تقال في مقام غزل، أو في مقام توبيخ أو سخرية، فالوقوف على المعنى المعجمي لكلمتي (أهلاً) و(الجميلة)، وعلى المعنى الوظيفي لهما وللباء الرابطة بينهما لا يصل بالباحث إلى المعنى الدلالي، إلا بالكشف عن المقام الذي قيل فيه النص[3]. فاختلاف المقام أدى إلى اختلاف المعنى، مع أن المقال نفسه، والفرق شاسع بين المعنيين: الغزل والتوبيخ.

وكما أن المعنى الوظيفي يحدده النظام في اللغة، والموقع في السياق كما يحدد العرف الاعتباطي المعنى المعجمي الذي يربط بين الكلمة ومدلولها، فكذلك يعين السياق أولاً على تحديد هذه المعاني جميعاً بما يستفاد منه من القرائن المعنوية، ويعين ثانياً على استكمال المعنى الدلالي الأكبر في إطار الثقافة الشعبية. ولإيضاح النقطة الأخيرة يضرب تمام حسان مثالاً بكلمة (خليفة) التي يختلف معناها باختلاف المقام:

1. قال تعال: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾[4].
2. قال الشاعر: خليفة الله يستسقى به المطر[5].
3. زرت مولد السيد البدوي فرأيت الخليفة على ظهر حصانه.

فالمعنى المعجمي لهذه الكلمة المفردة (خليفة) حين تكون خارج السياق يكاد يكون واحداً في عمومه، وهو "من يخلف سلفاً في عمل أو نحوه"[6]. والمعنى الدلالي لهذه المفردة في هذه الجمل على الترتيب:

1. الجنس الإنساني.
2. أمير المؤمنين.
3. شيخ الضريح[7]. (وهذا التعبير خليفة لا يجري استعماله إلا في مصر في طقوس معينة، وهي جزء من سياق الحال الذي تشيع فيه).

---

(1) ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، 10/1.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص205 – 231.

(3) ينظر: نفسه، ص342.

(4) سورة البقرة، آية 30.

(5) أبو مالك غياث بن غوث التغلبي الأخطل، الديوان، 197/1.

(6) الزمخشري، أساس البلاغة، ص173.

(7) ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص354 – 355.

إذا فالوصول إلى المعنى الدلالي الكامل عند تمام حسان إنما يكون بتحليل النصوص إلى عناصر السياقين: اللغوي، وغير اللغوي. وهذا التحليل هو ما يطلق عليه حسان بـ" تشقيق المعنى"، فهو يرى أن المعنى يمكن تشقيقه إلى نسق من الوظائف، والوظيفة عنده تعني استعمال شكل لغوي معين في سياق، وهذا يعني أن المعنى مركب من علاقات الماجريات، والجراماطيقا بفروعها، والمعجم والدلالة، وكل من هذه الجهات يأخذ نصيبه من هذا المركب بالبحث في ماجرياته المناسبة[1]. وفي هذه الماجريات المركبة يجد كل باحث لغوي ماجراه، فعالم الأصوات يجد ماجراه، وكذلك النحوي والمعجمي يجدون ماجرياتهم[2]. والمقصود بتشقيق المعنى تقسيمه وعزوه إلى فروع من النظام اللغوي. وهذا يقودنا إلى إيضاح النقطة الثانية من جهود تمام حسان في هذا الصدد وهي:

- تشقيق المعنى:

وقد ذُكر سابقاً أن تمام حسان يرى أن كل دراسة لغوية يجب أن تتجه إلى المعنى، وأن المعنى هو الهدف المركزي الذي تنصب عليه الدراسة من كل جانب، ويوضح ذلك بالرسم التالي، مع التنبيه على ضرورة هذه المستويات وفقاً لدورة عقارب الساعة ابتداءً من الأصوات:

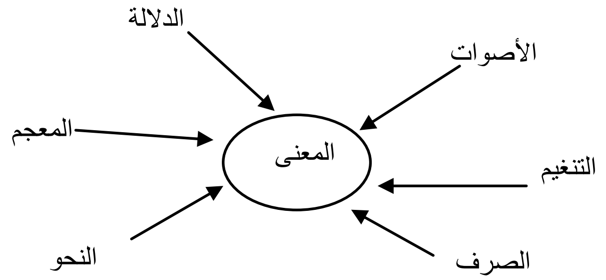

وهكذا يصبح المعنى مشققاً، وكل فرع من فروع العربية يستقل بقسط من هذا المعنى ليوضحه، ويُعين على كشفه وإظهاره، فعلم الأصوات يقوم بتناول الصوت المنطوق فيصفه بعد أن حدد حدوده في بيئته الصوتية، تحديداً اعتباطياً تسمح به أهداف الدراسة، كأن تحدد لكل صوت متى يبدأ ومتى ينتهي، وغرض علم الأصوات اللغوية من دراسة الصوت الإبانة عمّا في نطقه من حركات عضوية، وما فيه من ظواهر صوتية، فأما الحركات العضوية فتدرس تحت اسم المخارج – مخارج الحروف –، وأما الظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الحركات فيطلق عليها اسم الصفات، فمهمة علم الأصوات إذاً تحديد عدد المخارج في اللغة التي يدرسها، ووصف الحركات التي يتم بها نطق المخارج، ثم يذهب إلى الظواهر الصوتية فيقسم الأصوات بناءً عليها بين الشدة والرخاوة، وبين الجهر والهمس، ثم الترقيق والتفخيم، والهدف من التقسيم هو إظهار أوجه الخلاف التي تبرر جعل كل صوت منها بموضع التباين من الآخر من حيث الوظيفة التي يؤديها في المنظمة الصوتية للغة. "وهذا التباين في الوظيفة هو ما يطلق عليه علماء الغرب اسم القيم الخلافية أو(differential values)، فإذا صح هذا كانت الوظيفة التي يؤديها الصوت في نطاق المنظمة الصوتية هي معناه، أو على الأصح هي قسط المعنى الذي قصد به أن يؤديه. ومن ثم صح أن يُسمى القسط الذي يؤديه الصوت من المعنى معنى وظيفياً، أي أنه ليس معنى معجمياً يُكشف عنه في القاموس"[3].

والنقطة التي ينتهي عندها علم الأصوات هي النقطة التي يبدأ فيها علم التشكيل الصوتي، فإن كان علم الأصوات يكشف عن وظيفة الصوت، فإن علم التشكيل الصوتي يكشف عن وظيفة الحرف والموقع أو المقطع، والفرق بين الحرف والصوت في الدراسة اللغوية الحديثة أن الحروف هي ليست الصور الكتابية التي تُخط بالقلم، فهذه رموز كتابية للحروف، وهي ليست أيضاً ما يُنطق باللسان أثناء الكلام، فهذه الأصوات، ولكن الحروف أقسام يشتمل كل منها على عدد من هذه الأصوات، وإذا كانت الأصوات تدخل في نطاق حاستي: السمع والبصر، فإن الحروف تدخل في نطاق الفهم. وللحروف معان تتضح حين نضيف

(1) ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص117.

(2) ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص296.

(3) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص118 – 119.

حرفاً للكلمة أو نستبدل حرفاً من حروفها، فالمعنى يتغير مع كل حركة نقوم بها، فكلمة (ثار) مثلاً لو أضيفت الهمزة في بدايتها وأصبحت الكلمة (أثار)، لتغير معناها من اللزوم إلى التعدي، وإذا حلت الجيم محل الثاء أصبحت الكلمة (جار)، وهكذا. مما يعني أن للحرف نصيباً من المعنى العام هو وظيفي في طبيعته، أي أن الحرف يؤدي وظيفة معينة بوجوده في الكلمة[1].

ويشير تمام حسان إلى أن علم التشكيل الصوتي لا يقتصر عمله على تقسيم الأصوات إلى حروف، بل يتناول طائفة من التغييرات الصوتية بحسب الموقع، أو الظواهر الموقعية، وهي الظواهر التي يتوقف ورودها على الموقع الذي تقع فيه من المنطوق –، من ذلك التماثل بين الحرفين المتعاقبين في السياق عندما تتقارب مخارجهما، نحو نطق النون في صورة الميم كما في (من بينهم)، ومنه أيضاً ظهور همزة الوصل في أول الكلام، واختفاؤها في وسطه، مما يعني أن ظهورها مرتبط بموقع خاص، ومن ذلك النبر والتنغيم، وغير ذلك من الظواهر الموقعية، كما يتناول التشكيل الصوتي كذلك دراسة مقاطع اللغة، والتفريق بين ما هو صوتي وما هو تشكيلي من هذه المقاطع[2]. فالحرف والصوت والمقطع والموقع كلها ذات وظائف دالة على المعنى.

وبعد أن يفرغ من حديثه عن علم الأصوات، والتشكيل الصوتي، ودورهما في الإبانة عن المعنى، ينتقل بالحديث إلى علم الصرف، فيقف عند الصيغة ووظيفتها ودورهما في الإسهام في الكشف عن المعنى، ويذكر أن هناك وظائف محددة للصيغ الصرفية في اللغة العربية؛ فوظيفة صيغة فاعل غير وظيفة صيغة مفعول، والمجرد غير المزيد[3]. فالفعل ضرب مثلاً يؤدي وظيفة إسناد الفعل إلى الغائب، بينما الفعل اضرب يؤدي وظيفة الإسناد إلى المخاطب، مما يعني أن صيغة الكلمة ووظيفتها ذات أثر كبير في الوصول إلى المعنى المقصود.

ثم ينتقل إلى النحو، فيرى أن النحو يكشف عن وظيفة الباب، لذا فهو يُعنى بدراسة الأبواب النحوية، وبيان وظائفها المنوطة بها في السياق[4]. فكل كلمة تنتمي إلى باب نحوي معين، والنحو يدرس العلاقات بين الأبواب لا بين الكلمات، وكل باب من هذه الأبواب يؤدي معنى وظيفياً، فالصلة بين الإعراب والمعنى الوظيفي مثلاً وثيقة جداً، فحين يُقال إن المعنى الوظيفي (لضرب) أنها فعل ماض، يُقصد به أنها تقوم في السياق بدور الفعل الماضي، وتؤدي وظيفته النحوية الخاصة به، ويكفي ابن اللغة أن يعرف وظيفة الكلمة في السياق حتى يُعربها إعراباً صحيحاً، وتأتي وظيفة الكلمة من صيغتها ووضعها، لا من معناها اللغوي، لذلك يستطيع المرء أن يعرب كلمات لا معنى لها، إلا أنها مصوغة وفق شروط العربية، ومرصوفة وفق تراكيبها[5]. أي إذا ما اتضح المعنى الوظيفي أمكن إعراب الجملة دون الرجوع إلى المعجم أو المقام، ويمثل على ذلك ببيت من الشعر من تأليفه، يقول فيه[6]:

قَاصَ التَّجَيْنُ شِحَالَه بِتَرِيسِهِ الــ فَاخِي فَلَمْ يَسْتَِفْ بِطَاسِيَةِ البَرَنْ

فجاء بألفاظ هذا البيت خالية من الدلالة المعجمية، ثم أخذ في إعرابه إعراباً كاملاً، وذلك من أجل إظهار أهمية المعنى الوظيفي دون المعنى المعجمي.

ويرى تمام حسان أن مجموع هذه المعاني التي يؤديها الصوت والحرف والموقع والمقطع والصيغة والباب، يُطلق عليها اصطلاح المعنى الوظيفي؛ لأن لكل واحد من الأمور وظيفة خاصة يؤديها، ويساهم بأدائها في إظهار المعنى العام[7].

---

(1) ينظر: نفسه، ص120 – 121.

(2) ينظر: نفسه، ص121.

(3) ينظر، نفسه، والصفحة نفسها.

(4) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص122.

(5) ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص226 – 227.

(6) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص183 – 184.

(7) ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص122.

ثم يذهب تمام حسان إلى المعنى المعجمي فيقول: إذا كانت الوظائف الموجودة في أصوات الكلمة وحروفها ومقاطعها وموقعياتها وصيغتها وبابها لا تحدد معناها المعجمي، فإن هذا المعنى المعجمي قاصر عن تحديد المعنى الدلالي؛ لأنه معنى عام يحتمل أكثر من وجهة. وحال دخول الكلمة في سياق معين فإن السياق يحدد معناها ويخصصه، أي أن السياق يلغي صفة العموم التي في المعنى المعجمي، ومن خلاله يأخذ اللفظ معناه الخاص، ففي معظم حالات الدلالة السياقية يجد المرء قدراً عظيماً من الكمال في الدلالة على المعنى، إلا أن هذا القدر وإن عظم لا يُغني عن الحاجة إلى العنصر الاجتماعي في المنطوق، فاللغة عند تمام حسان كما هي عند فيرث نتاج اجتماعي، كالكلام الذي يعدانه اجتماعياً خلافاً لسوسير، وعليه فالكلام فيه خصائص اجتماعية كما في اللغة، وهذا الجانب الاجتماعي في اللغة يجب مراعاة الكشف عنه في إبانة المعنى، "وإن وجود هذا العنصر الاجتماعي في اللغة ليدفعنا إلى الكلام عن معنى اجتماعي هو المعنى الدلالي الذي يتوافر فيه الخصوص الذي افتقدناه في المعنى المعجمي العام، وإذا كان المعنى المعجمي هو معنى الكلمة، فليس المعنى الدلالي إلا معنى المنطوق، روعي فيه النشاط النطقي أولاً والسياق ثانياً"(1).

فالمعنى هو المركز الذي يتجه إليه كل فرع من فروع البحث اللغوي، وهنا يذكر تمام حسان أن اللغويين قد شققوا هذا المعنى إلى ما يسمى بالمعنى الوظيفي، والمعنى المعجمي، والمعنى الاجتماعي، ويأخذ في شرح هذه العناصر التي يُشقق إليها المعنى وبيان ما تشمله، فمعنى الوظيفة يشمل معنى الصوت في الكلمة، ومعنى المقطع منها، ومعنى النغمة حين النطق، ومعنى صيغتها الصرفية، ومعنى بابها النحوي، أما المعنى المعجمي فهو معنى الكلمة بالنسبة لمدلولها الذي تدل عليه، بصرف النظر عن صيغتها وبابها، أما معنى الدلالة فهو المعنى الاجتماعي المقصود من الكلام المفيد الذي قد يكون مركباً من كلمة واحدة، أو جملة طويلة مؤلفة من عدد من الكلمات، والوصول لهذا المعنى الاجتماعي يتم عن طريق التحليل الدقيق للملابسات المصاحبة للنطق(2) أي بكلمة أخرى السياق الحالي أو المقامي.

ويقدم تمام جدولاً جديداً لتشقيق المعنى ينبني في أساسه على ما جاء به اللغويون من جهة، وينفرد بمنهج خاص به في تحديد بعض المصطلحات العربية وفي الانتفاع بها في الأغراض العملية من جهة أخرى. وفي الجدول الآتي توضيح لطرق تحليل العناصر التي يشملها النص المنطوق وماجرياته(3):

النص الكلامي	الخصائص اللغوية	الماجريات	نوع الوظيفة	الأثر والنتيجة
يذكر الجملة	يحلل النص على المستويات اللغوية المختلفة	المتكلم والسامع والظروف	إغراء، التزام، إلخ	أثر الكلام من استجابة سلمية إلى ضحك إلى غير ذلك

ويعود تمام حسان إلى الجدول مرة أخرى في كتاب آخر ويُجري عليه بعض التعديلات ليصبح على النحو الآتي(4):

المنطوق	التحليل اللغوي	الماجريات	نوع المناسبة	الأثر

ويلاحظ أن تمام حسان استعاض بلفظ المنطوق بدلاً من لفظ الجملة، ويعلل ذلك بقوله: إن لفظ الجملة محمل بحمل ثقيل من تقاليد الاستعمال في النحو والبلاغة والمعجم، لذا فهو سيستخدم لفظ المنطوق ليدل على مفهوم الجملة، وليدل كذلك على أن

(1) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص123.
(2) ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، 330/1.
(3) ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص303.
(4) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص124.

المعنى المدروس هو معنى نص حي، يجري على اللسان. ويلاحظ أيضاً أن التحليل اللغوي يقع في خانة واحدة من الجدولين، في حين أن ما يتعلق بالظواهر الاجتماعية المحيطة بالمنطوق شغلت ثلاث خانات(1).

وحتى تتم عملية فهم المعنى الاجتماعي تجب معرفة كل ما له علاقة بالماجريات، والمقصود بالماجريات كل الظروف المحيطة بنطق المنطوق، ويدخل فيها المتكلم والسامعون، أما نوع المناسبة فقد تكون تكريماً أو توبيخاً أو وعظاً أو ذماً أو تحريضاً وغير ذلك، والمقصود بالأثر نوع الاستجابة التي يلقاها المنطوق(2). ولإيضاح تحليل المعنى وفق هذا الجدول يُمثل تمام حسان بمقولة: "قولوا له يسكت"، فنوع التنغيم هنا له أهمية كبيرة في إيضاح المعنى، فقد يُقال هذا المنطوق بصوت خافت في مناسبة اجتماعية معينة هي الخوف من أن يكون المتكلم مطلوباً لأحد، فيُستدل عليه من خلال كلامه، فيُطلب سكوته على مكان الجماعة التي هو منها، وإذا قيلت بصوت ساخر فقد تكون المناسبة هي المفاخرة بين شخصين، وهلم جرا(3). فالقول نفسه لكن التنغيم والموقف الاجتماعي، عملا على تغيير المعنى.

وعن طريق الماجريات يمكن تحدد أفراد الجماعة المشاركة في الحدث، كالشخص المتكلم، والشخص الذي تكلم الناطق عنه، والمخاطبين الذين لا يقلون عن ثلاثة بدليل واو الجماعة، فهذه كلها عوامل تؤثر في المعنى الاجتماعي الذي وُصِف بأنه أخص من المعنى المعجمي، ويمكن لهذا النوع من التحليل أن يُوضح العنصر الاجتماعي في المعنى، وهذا المعنى الاجتماعي لن يكون إلا من خصائص المنطوق، لأن هذا المنطوق يتحرك به اللسان، وتسمعه الأذن، وفي ذلك يتحقق التواصل الاجتماعي الكلامي(4). وحتى يتم الوصول إلى هذا المعنى على الباحث أن يتوقف إزاء المنطوق ويتبيّن ظروف نطقه، ومن ثَمّ يحلل ما فيه من عناصر تسهم في وضوح المعنى.

وهنا يشقق تمام حسان المعنى الذي في المنطوق إلى ثلاث نواحٍ هي الوظيفة، والإطلاق، والقصد، وفيما يلي توضيح لهذه النواحي:

1- الوظيفة، وهي معنى الصوت، ومعنى الحرف، ومعنى المقطع، ومعنى الظاهرة الموقعية من ظواهر الكلام، ثم هي معنى الأدوات والملحقات والصيغ، ثم هي معنى الأبواب النحوية، فلكل واحد من هذه المعاني وظيفة خاصة به يؤديها، ويسهم بأدائها في بيان المعنى وإظهاره. فأما الصوت فإنه يؤدي وظيفة هامة في المنطوق من حيث تميز المنطوق عمّا يشبهه من أصوات، فقد يكون معنى المنطوق متوقفاً على صوت واحد من أصواته، كالفرق بين نال ومال، أو على صفة من صفات أحد أصواته، كالفرق بين الجهر والهمس في زاد وساد، وإذا تمكّن الصوت أو صفته من أن يكون دعامة يقوم عليها معنى المنطوق، فلا شك إذاً في أن الصوت ذو معنى في نفسه، وهذا المعنى هو وظيفته التي يؤديها في الكلام المنطوق(5).

أما المعنى الوظيفي للصيغة الصرفية فإنه يتحدد من حيث هي صيغة بصرف النظر عن الكلمة التي توضع على مثالها، ويجد القارئ في كتب الصرف فصلاً خاصاً لتحديد معاني صيغ الزيادة، وهذه المعاني هي في الحقيقة الوظائف التي تؤديها هذه الصيغ، وليست معاني كالمعاني المعجمية العرفية التي تُعطى للكلمات المفردة(6). أما معاني الأبواب النحوية فهي وظائف تؤديها الكلمات وفق ورودها في السياق، فعندما يُعرب أي مثال من الأمثلة النحوية، فمعنى ذلك نسبة كل كلمة إلى باب نحوي خاص، هو الوظيفة التي تؤديها الكلمة في السياق، فضرب مثلاً فعل ماض، أي أن الوظيفة التي يؤديها هذا الفعل هنا أنه يقوم بدور الفعل الماضي في السياق، والكلام نفسه يقال عند إعراب (زيد) بأنه فاعل و(عمراً) بأنه مفعول، فكل هذه وظائف تؤديها

(1) ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، 330/1، 337. واللغة بين المعيارية والوصفية، ص124.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص124، ومقالات في اللغة والأدب، 336/1.

(3) ينظر نفسه، 337/1، واللغة بين المعيارية والوصفية، ص124.

(4) ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، 331/1.

(5) ينظر: نفسه، والصفحة نفسها.

(6) ينظر: نفسه، 334/1 – 335.

الجزئيات التحليلية الموجودة في الملفوظ، ولا مناص من جعل هذه الوظائف جزءاً من المعنى العام، لأنه في حالة تجاهلها لا يمكن تحديد المعنى، ولساد الغموض فيه، ويشبه تمام حسان ذلك بمن يتصدى لتشريح الجسم، وهو جاهل تماماً بوظائف الأعضاء[1]. وهنا يتم الانتهاء من المعنى الوظيفي.

2- **الإطلاق أو المعنى المعجمي**، وهو المعنى العرفي الذي أُعطي للكلمة بالتواضع، ويصلح لأن يسجله المعجم، والمعاني المعجمية هي معانٍ غير اجتماعية من جهة، وعامة من جهة أخرى، فهي غير اجتماعية لأنها لا تُستخرج من الكلمات وهي في الملفوظ، وإنما تُستخرج من الكلمات منفصلة تماماً عن السياق، وأما أنها عامة فلأن الكلمة لا يُنطق بها إلا لقصد واحد، إلا أن المعجم يسوق للكلمة الواحدة عدداً من المعاني لا يمكن بحال أن يُقصد جميعها في الوقت نفسه.

3- **المقصود وهو المعنى الاجتماعي**، وهو ما يتم اللجوء إليه لتلاشي النقص المعجمي، ويُراد به المعنى الاجتماعي المراد من الملفوظ، والعلاقة بين الملفوظ والمقصود تختلف عن العلاقة بين الكلمة والمدلول من حيث كون العلاقة بين الكلمة ومدلولها علاقة اعتباطية، على حين أن العلاقة بين الملفوظ والمقصود علاقة اجتماعية، فلو كانت العلاقة بينهما – الملفوظ والمقصود – اعتباطية لانعدم المعنى[2]. وتتضافر هذه النواحي الثلاث معاً، وفي تضافرها يتضح المعنى الدلالي، الذي هو عند تمام حسان المعنى الاجتماعي.

يظهر مما تقدم أن تمام حسان يولي المعنى الاجتماعي للكلام اهتماماً كبيراً وفائقاً شأنه في هذا شأن فيرث وتلاميذه؛ لذا فهو يرى أن المقال بجزئيه: الوظيفي والمعجمي لا يكشف عن المعنى المقصود؛ لذلك على الباحث أن يستعين بالمقام الاجتماعي، كي يصبح المقصود مفهوماً في إطار الثقافة الاجتماعية للفرد، أي ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه، من هنا دعت الحاجة إلى تشقيق المعنى، كما يقول تمام حسان: "دعت الحاجة المنهجية إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معانٍ فرعية، أحدها: المعنى الوظيفي، وهو وظيفة الجزئ التحليلي في النظام أو في السياق على حد سواء، والثاني: المعنى المعجمي للكلمة، وكلاهما متعدد ومحتمل خارج السياق، وواحد فقط في السياق، والثالث: المعنى الاجتماعي أو معنى المقام وهو يشملهما، ليكون بهما وبالمقام معبّراً عن السياق في إطار الحياة الاجتماعية[3].

وينهي تمام حديثه عن تشقيق المعنى بقوله: هذا هو "الاتجاه الصحيح والضروري في الكشف عن المعنى، وهذه الاعتبارات المختلفة هي التي ينبغي أن تراعى في تشقيق المعنى، وأن تطبيق هذا المنهج في الكشف عن المعنى ينبغي أن يَصدُق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحاضر الحي، كما ينبغي أن يَصدُق على النصوص المكتوبة ذات المقام المنقضي والذي يمكن أن يُعاد بناؤه بالوصف التاريخي، وأن الاكتفاء بالمعنى الحرفي أو معنى المقال أو معنى ظاهر النص يُعدّ دائماً سبباً في قصور الفهم"[4]. فتشقيق المعنى لا يقتصر على النصوص المكتوبة، بل يصدق على النصوص المنطوقة أيضاً.

ويشير تمام حسان إلى إمكانية استعارة المقال المشهور للمقام الطارئ، وهو ما يسمى بالاستشهاد أو الاقتباس أثناء الكلام، والأصل في ذلك التوفيق بين كلام ذائع الشهرة انقضى مقامه الأصلي الذي قيل فيه، وبين مقام مشابه يجد المرء نفسه فيه في الوقت الحاضر، فيورد المقال الشهير في المقام الجديد، وكلما قوي التناسب بين المقال الشهير والمقام الجديد كان ذلك من حسن الاستشهاد، والأمثلة على ذلك كثيرة، وأول ما يمكن أن يُقدم هنا هو استشهاد أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿ٱ □﴾ "وما محمد إلا رسول ...وسيجزي الله الصابرين"[5]. وعند سماع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الاستشهاد

(1) ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، 334/1.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، 122، ومقالات في اللغة والأدب، 331/1- 336.

(3) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص28 – 29.

(4) نفسه، ص372.

(5) سورة آل عمران، آية 144.

قال بما معناه: والله لكأني لم أسمع هذه الآية من قبل(1). والمعروف أن هذا الاستشهاد كان له أكبر الأثر في إصلاح أخطر مقام من مقامات الفتنة في التاريخ الإسلامي على الإطلاق.

وقد يُستخدم النص الواحد في الاقتباس بحيث يُردُّ جزء منه على جزئه الآخر كالذي يروى عن أحد علماء الأزهر، وكان بينه وبين زميل له ميل إلى المنافرة، فدخل المسجد الأزهر ذات يوم من أيام الشتاء فوجد زميله مستلقياً تحت دفء الشمس وقد غطى وجهه فظنه نائماً فوقف عنده وقال: الفتنة نائمة، فاعتدل زميله من رقدته، وقد تصنع صورة الذي أوقظ من نومه، وقال: لعن الله من أيقظها. فيظهر من ذلك أن عبارة الحديث قد انقسمت إلى قسمين رُدّ ثانيهما على أولهما، والمغزى من وراء كل ذلك؛ أن من المقال ما يتصف بصفات معينة، أو ما تتوافر له مزايا معينة تجعله صالحاً للاستحضار في المقامات التي تشبه مقامه الأصلي الذي قيل فيه، فيصبح المقال القديم جزءاً من المقال الجديد، ولا بدّ من أن يُؤخذ هذا بالاعتبار عند تحليله(2).

وإذا كان المقام ضرورياً للفهم، فإنه يكون أحياناً ضرورياً لعدم تحديد فهم بعينه، كالذي يكون في مقام التعمية والإبهام والإلغاز، إذ قد يكون اللبس في هذا المقام مقصوداً لذاته، فلولا فهم المقام هنا، والمعرفة بأنه مقام تعمية ما قبل الناس المقال، ولا أقبلوا عليه، ولا اعترفوا بأنه نص يستحق عناء النظر بجدية، ومثال ذلك قول الشاعر في خياط أعور خاط له قباء(3):

خاط لي عمرو قباءً ليت عينيه سواءْ

فاسأل الناس جميعاً أمديح أم هجاءْ

فلا سبيل لمعرفة التمني بلفظ ليت أكان للخياط أم عليه إلا بمعرفة ما إذا كان الشاعر قد رضي عن قبائه أو سخط عليه، إلا أن إخفاء هذا الجانب في نفس الشاعر حال بين الرضى أو السخط وبين أن يكون مقاماً لفهم النص، وأحل محله مقام التعمية فأصبحت التعمية جزءاً من المعنى، وأصبح اللبس لا يراد دفعه(4). وبقي المعنى يحتمل الوجهين: الرضى والسخط.

والمقامات عند تمام حسان على أضرب ثلاثة:

– المقام الذي اكتمل فيه الطابع الاجتماعي، وهو المقام الذي يتحقق فيه وجود العناصر التي تجعل المقام مركباً لا بسيطاً، أي تجعله مقاماً لا موقفاً، وذلك نحو عبارة "يا سلام"، فالمعروف أن (يا) حرف نداء، وأن كلمة (سلام) من أسماء الله سبحانه وتعالى، فإذا أُخذ بالمعنى الوظيفي لأداة النداء والمعنى المعجمي لكلمة (سلام) حين ينادى (يا سلام) فإن المعنى الحرفي أو المقالي أو ظاهر النص يُشير إلى أن المنادى هو الله سبحانه وتعالى، إلا أن هذه العبارة صالحة لأن تدخل في مقامات اجتماعية متعددة، ومع كل مقام منها تختلف النغمة التي تصحب نطق العبارة، فمن الممكن أن تُقال هذه العبارة في مقام الطرب، أو في مقام التشكيك، أو السخط، أو التوبيخ، أو التأثر، أو الإعجاب، أو التلذذ، وغير ذلك من مقامات(5)، فالاحتمالات التي احتملتها هذه العبارة متنوعة بتنوع المقامات الاجتماعية الممكنة، من توبيخ إلى سخط إلى إعجاب وغير ذلك، ولا يمكن لأي واحد من هذه المعاني أن يؤخذ أخذاً مباشراً من المعنى المعجمي لأداة النداء والاسم المنادى، ولا من المعنى الوظيفي لكليهما، أي أن معنى العبارة لا يُؤخذ من المقال وحده، ولكنه يتوقف على الموقف الاجتماعي الذي قيلت فيه هذه العبارة.

---

(1) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص339 – 340.

(2) ينظر: ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص340.

(3) ينظر: نفسه، ص350. والبيتان لبشار بن برد، الديوان، 23/1. : ونصهما في الديوان:

خاط لي عمرو قَبا ليت عينيه سوا

قلت بيتاً ليس يُدرى أمديح أم هِجَا؟

(4) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص350.

(5) ينظر: نفسه، ص345.

– والنوع الثاني هو المقام الفردي، وهو المقام الذي يتكلم فيه المرء إلى نفسه، كمقام التثاؤب ومقام الدعاء والصلاة والقراءة في الخلوة، وغير ذلك مما يعوزه الطابع الاجتماعي، حتى إن مثل هذه المواقف لتصلح أن تسمى مواقف فردية لا مقامات اجتماعية، ومن قبيل ذلك الذي يغني لنفسه دون أن يسمعه أحد، ودون أن يكون غناؤه للاستماع، وكذلك الحال مع الذي يقود سيارته ويجد أمامه سائقاً آخر لا يلتزم بقوانين السير فيسبب له حاله من الإرباك، فيتلفظ بشتائم واحتجاجات لا يسمعها أحد غيره، فكل هؤلاء المتكلمين يقصر الموقف معهم عن أن يكون مقاماً اجتماعياً بالمعنى المقصود، ويقدم تمام حسان تعليلاً عن وصف مثل هذه المواقف بأنها اجتماعية بقوله: ولكن وصف أي موقف من هذه المواقف بأنه اجتماعي لا يتأتى من طبيعة تكوينه، وإنما يأتي حين ينظر إليه باعتباره نمطاً سلوكياً معيناً داخلاً في نسيج ثقافة اجتماعية ما، بمعنى أن أفراد المجتمع جميعاً يقفون هذه المواقف بعينها عندما تتهيأ لهم المناسبة، ولكنهم يقفونها أفراداً، إضافة إلى أن هذه الأنماط السلوكية مكتسبة، يكتسبها الفرد عن مجتمعه كما هي، أي كما حددها المجتمع، فالفرد مثلاً يتعلم من مجتمعه كيف يختم التثاؤب بذكر الله بصوت مسموع، ويتعلم كيف يستشهد لنفسه بأي شكل تعبيري حسب المناسبة دون أن يسمع الناس من حوله ما يقول، فهذه المواقف على رغم كونها تحمل طابع الاتصال الاجتماعي؛ إلا أنه يمكن عدّها أنماطاً سلوكية لغوية فينسب إليها – كونها أنماطاً– قدر من الطابع الاجتماعي[1].

– والثالث: مقام اللغو الاجتماعي وهو ما يسميه مالينوفسكي بـ"لغة التجامل"، والكلام الذي يُقال في مثل هذا المقام ليس مقصوداً لذاته، فهو لا يُقصد به التفاهم أو البحث عن المعلومات أو إصدار الأوامر، أو التعبير عن الآمال أو الرغبات والعواطف، فمثلاً قد يكون موضوع الطقس أو السياسة أو أي موضوع عام، والحقائق التي يشتمل عليها الموضوع تكون معروفة عند طرفي المحادثة، فلا يفيد أحدهما من سماعها أي معلومات جديدة، ولكن كلا الطرفين يلغو رفعاً للحرج الناتج من الصمت، ومضيعة للوقت، ومثال ذلك الحديث الذي يجري بين زائرين لأحد الأطباء في غرفة الانتظار، وموضوع حديثهما يكون عاماً، لا يؤذي أحداً، إلا أن المناسبة قد تدعو بينهما إلى أن يتحدث كل منهما عن مرضه ومدى تطوره، ويشير تمام حسان إلى مقولة إذا تقابل إنجليزيان فكلامهما عن الطقس، وإذا كانا عربيين فكلامهما عن السياسة، وإذا كانا يونانيين فكلامهما عن الأكل والمطاعم، والكلام في أوساط النساء عن الأزياء، وبين الطلبة عن الأساتذة والامتحانات، والكلام في كل ذلك ليس مقصوداً لذاته إلا عندما يتحول اللغو إلى مناقشة تتطلب أن يكون لكل من الطرفين رأي يدافع عنه، والمقصود باللغو في كل هذه الحالات رفع الحرج الاجتماعي عن المتكلمين في موقف أوجدته الصدفة[2].

وهذه المقامات التي يتحدث عنها تمام حسان هي في الأصل نسيج ثقافي، وهي تحديداً الثقافة الشعبية، أي أنها نسيج من العادات والتقاليد والأعمال اليومية، والتراث الشعبي والذاكرة الشعبية، والعواطف الجماعية، وغير ذلك، وبحسب هذا الفهم الشامل لفكرة المقام يعد المقال منطوقاً كان أم مكتوباً غير منبت عمّن ساقه وعمّن سيق إليه.

(1) ينظر: نفسه، ص343.

(2) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص344. وبالمر، مدخل إلى علم اللغة، ص97. وجون لاينز، علم الدلالة، ص32 – 33.

الخاتمة:

يظهر مما سبق أن تمام حسان تأثر بنظرية أستاذه فيرث، تأثراً واضحاً في تعريفه للغة بأنها ظاهرة اجتماعية، وفي تصوره للمعنى بأنه كل مركب من عناصر متعددة، بعضها لغوي وبعضها الآخر غير لغوي، وفي أساليب الوصول إليه عن طريق تشقيقه باستخدام الطرق التحليلية التي تقدمها فروع علم اللغة من أصوات وصرف ونحو، بعدّها عناصر تحليل المعنى الوظيفي، ثم المعنى المعجمي (الاطلاق)، إضافة إلى المعنى الاجتماعي (المقصود)، ليتشكل من مجموعها المعنى الدلالي.

والمعنى الدلالي عند تمام كما هو عند فيرث يعتمد على أساسين اثنين، هما: المقال والمقام، وأن المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية هي حقائق جزئية في المعنى أمام المعنى الدلالي، وأن مقام الكلام عنصر اجتماعي ضروري لفهم المعنى الدلالي الكامل، فمعرفة المقام تؤدي إلى معرفة دلالة المقال، وبالمقابل إن ما يأتي به المقال يظل قاصراً عن تحصيل المعنى بصورة واضحة، ما لم يستند إلى الظروف الخارجية، ومعرفة مناسبات القول، والعلاقة بين المتكلم والسامع، فجميعها عناصر تؤدي إلى معرفة المعنى الدلالي.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

يتم تنسيق المراجع على شكل معلقة بمقياس قدره (.63 سم)

المصادر والمراجع:

1. الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (1971)، الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، ط4، دار الأصمعي، دمشق.
2. أولمان، ستيفن (1997)، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ط12، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
3. بالمر، فرانك (1992)، علم الدلالة إطار جديد، ترجمة صبري إبراهيم السيد، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
4. بالمر، فرانك (1997)، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة خالد محمود جمعة، ط1، دار العروبة، الكويت.
5. ابن برد، بشار العقيلي (1950)، الديوان، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
6. بشر، كمال (1969)، دراسات في علم اللغة، ط1، دار المعارف، مصر.
7. حسان، تمام (1981)، الأصول دراسة إيبستمولوجية لأصول الفكر العربي، ط1، دار الثقافة – الدار البيضاء، المغرب.
8. حسان، تمام (2000)، البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ط2، عالم الكتب، القاهرة.
9. حسان، تمام (1958)، اللغة العربية بين الوصفية والمعيارية، ط1، دار الثقافة – الدار البيضاء، المغرب.
10. حسان، تمام (1994)، اللغة العربية معناها ومبناها، ط1، دار الثقافة – الدار البيضاء، المغرب.
11. حسان، تمام (2012)، حصاد السنين من حقول العربية، ط1، عالم الكتب، القاهرة.
12. حسان، تمام (2006)، مقالات في اللغة والأدب، ط1، عالم الكتب، القاهرة.
13. حسان، تمام (1979)، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة – الدار البيضاء، المغرب.
14. الحطيئة،جرول بن أوس بن مالك (1987)، الديوان، تحقيق نعمان محمد أمين طه، شرح أبي الحسن السكري، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.
15. خليل، عبد النعيم (2007)، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية.
16. الراجحي، عبده (1997)، فصول في علم اللغة، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
17. سامسون، جفري (1994)، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، محمد زكريا كبة، ط1، دار النشر العلمي، الرياض.
18. السعران، محمود (1962)، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ط1، عالم الكتب، بيروت.

19. شاكر، سال (1992)، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة محمد يحياتن، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
20. عمر، أحمد مختار (1982)، علم الدلالة، ط1، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت.
21. فندريس، جوزيف (1950)، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
22. لاينز، جون (1987)، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب،ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.
23. لاينز، جون (1980)، علم الدلالة الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري، ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة وآخرون، ط1، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق.
24. مجاهد، عبد الكريم (1985)، الدلالة اللغوية عند العرب، ط1، دار الضياء، الأردن.
25. الموسى، نهاد (1987)، نظرية النحو العربي في ضوء علم اللغة الحديث، ط2، دار البشير، عمان.
26. مومن، أحمد (2005)، اللسانيات النشأة والتطور، ط2، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر.

المجلات

1. ليونز، جون (1990)، ما معنى"نظرية المعنى"عند فيرث؟ ترجمة عبد الكريم مجاهد، مجلة آفاق عربية، كانون الأول، مج15، ع12.

الرسائل الجامعية

2. خليل، إبراهيم (1999)، السياق وأثره في الدرس اللغوي دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان.